العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

د. المختار علي عبد اللاطيف
كلية الآداب - جامعة الفاتح

الجغرافيا لم تُعرف علماً قائماً بذاته إلاَّ منذ القرن التاسع عشر، رغم أنها وجدت بدون مفهوم أو تسمية منذ وجد الإنسان على سطح الأرض. فالإنسان البدائي كان يحترف الجمع والالتقاط مما توفره له الطبيعة دون أن يبدل جهداً في البحث عما يسد رمقه، غير أن تزايد البشر وازدياد الحاجة إلى الطعام فرضت التوسع والانتشار في جميع الاتجاهات، فكلما زاد عددهم ازدادت الحاجة إلى الغذاء وبالتالي إلى البحث عنه في جميع الأماكن؛ أي إنها عملية ارتباط ما بين الإنسان والطبيعة والتي أساسها البحث عن الغذاء فكان على الإنسان البدائي عندئذ مواجهة التحديات التي تفرضها البيئة الجديدة ومحاولة التأقلم معها والاستفادة من خيراتها، ولا شك أن ذلك فرض نوعاً من التعلم واكتشاف البيئات المحيطة، مما حتم مراقبة الظواهر الطبيعية وربطها بأسلوب حياته. غير أن مثل هذا المسلك لا يعني عند ذلك الإنسان أي شيء فيما يخص هذا العلم،

إذ إن الجماعات البدائية كانت تلتقي وتصف تلك الأحداث الطبيعية أو المظاهر الجغرافية المتعددة التي كانت تشاهدها إبان حلها وترحالها، وهو ما يكون المفهوم القديم والحديث لعلم الجغرافيا، والذي بقي يحتل مركز الصدارة لآلاف السنين. وهو مفهوم يتكون من كلمة لاتينية geographia المركبة من مقطعين هما: geo وتعني الأرض، وgraphia وتعني الوصف، أي وصف سطح الأرض، واستمر العمل بهذا المفهوم الضيق لزمن طويل دون تسمية في كل الحضارات تقريباً إلى عهد الحضارة الإغريقية حيث أطلق عليها أراتوستيس البرقاوي اسم جغرافيا، في كتابه المفقود المسمى باسم «جغرافيا». وقد كان هذا الحقل من العلوم القديمة ولا يقتصر على طبقة معينة من الناس، إذ اشتغل فيه التاجر والمؤرخ والكاتب والرحالة والفيلسوف وغيرهم من ذوي الأعمال والحرف المختلفة، كل حسب طريقته في التعامل مع مختلف البيئات التي عاش فيها أو اكتشفها أثناء حله وترحاله، ولذلك كان كل منهم يضيف شيئاً إلى المعرفة الجغرافية والتي أخذت تنمو من حضارة إلى أخرى.

وإذا كانت الجغرافيا تعتبر أساساً لوصف الأرض، فينبغي ألا نستهين بهذا الهدف، فهي تقوم بتعريفهم بأنفسهم، وبمحيطهم الذي يعيشون فيه، وحقيقة صلتهم بالبيئة التي يسكنونها وإن كان هذا الهدف وما زال متعارفاً عليه بين جل المتعاملين مع هذا العلم سواء منهم المختص، أو غيره، إلا أن ذلك لم يقف في طريق تطوره مع تطور الحضارة البشرية، إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن من المساهمة الفعالة في اتساع الفكر البشري ومعارفه، مستفيدة في ذلك من العلوم الأخرى والتقنيات والأساليب الحديثة. غير أنه إذا كان للجغرافيا هذا الدور الفعال، فإن مفهومها ما زال يكتنفه الكثير من الالتباس نتيجة لتعدد فروعها والأهداف التي تسعى إليها، وتعدد العاملين في هذا المجال، وتعدد اتجاهاتهم ومراميهم. فهمُّ الإنسان البدائي الدؤوب هو الحصول على الغذاء، والذي كان يتطلب منه اكتشاف المعمور المحيط به. كما أن صيد الحيوان والسعي وراءه من مكان إلى آخر أدى إلى معرفة بيئات جديدة تختلف عن البيئات التي آلفها وتعامل معها، لذلك كانت مداركه ومعارفه تزداد باستمرار، ولم يقتصر الأمر على معرفة

الأرض فقط، بل امتد ببصره نحو السماء والكون المحيط به مستلهماً كنه تلك المخلوقات التي تتوالى في أخذ مكانها في السماء خاصة ما يهمه منها في حياته اليومية مثل الشمس والقمر، أي أن معارفه كانت مرتبطة بالأرض التي يعيش عليها والكون المحيط به والذي كثيراً ما يتحكم في حياته ويجعله يغير أساليب معيشته من حين إلى آخر تبعاً لتغير الأحوال المناخية وتتابع الفصول وما يتبع ذلك من تغير في أحوال البشر، كما أن المعارف الجغرافية أخذت تزداد باستمرار مع توالي الكشوف والرحلات التي قام بها الإنسان في شتى أصقاع العالم منذ مئات السنين، ولذلك أخذت الجغرافيا تنحو مناحي أخرى غير الوصف. إذ استلهم الإنسان من اختلاف البيئات الطبيعية نوعاً من الربط بين تلك الظواهر ومحاولة معرفة الأسباب لتعليلها وتحليلها، آخذاً في حسابه تساؤلات معينة مثل: أين وكيف ولماذا؟ حيث يرتبط الأول منها بالمكان أو موقع الظاهرة المراد دراستها ومعرفتها، والثاني معرفة كيفية التعامل مع تلك المواقع والبيئات والتأقلم معها للعيش فيها والاستفادة منها، أما الأخير فهو ما يقودُ إلى التعليل ومعرفة السبب وارتباط الظاهرة الجغرافية بغيرها من الظواهر، مثل: لماذا يعيش الإنسان في هذه البقعة دون سواها؟ وعلى ذلك تعددت المفاهيم الجغرافية ما بين قائل: بأنها دراسة الاختلافات الإقليمية على سطح الأرض خاصة اختلاف العناصر المناخية من مكان إلى آخر مثل الحرارة والأمطار، وكذا اختلاف التضاريس والنباتات، وبالتالي اختلاف تعامل الناس مع تلك المعطيات الطبيعية، ومدى الاستفادة منها. فيما يقول البعض الآخر: إنها العلم الذي يصف سطح الأرض مع الإشارة إلى أوجه الاختلاف والتشابه بين المناطق. بينما يعرفها البعض الآخر: بأنها علم ارتباط الإنسان بالبيئة. أو هي دراسة ترتيب الظاهرات في المكان على سطح الأرض[1].

وإذا كانت الجغرافيا حسب هذه المفاهيم المختلفة والتي تصب في

(1) روجر متشل، تطور الجغرافيا الحديثة، ترجمة محمد السيد غلاب، دولت أحمد صادق، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية 1983، ص46.

مجملها على تعامل البشر مع الأرض ودراسة العلاقة بينهما، فإن هذا العلم قد تطور على مر العصور، وقد ساهم في هذا التطور كل الحضارات الإنسانية القديمة منها والحديثة، وكان للعرب والمسلمين دور بارز في هذا المضمار وحتى يتسنى لنا معرفة هذا الدور على حقيقته لا بد لنا من إبراز دور الحضارات الأخرى حتى ينجلي وضع المساهمة العربية والإسلامية في إطارها الصحيح.

الجغرافيا في الحضارات القديمة:

انتشرت الحضارات الإنسانية في شتى أصقاع العالم، وفي أزمنة مختلفة، وكان كل شعب من شعوب الأرض ينظر إلى الأرض والكون، والعلاقة بين مختلف الظواهر الطبيعية والبشرية نظرة مختلفة. فالمصريون القدماء كانوا يعتقدون في ارتباط ظاهرة فيضان وادي النيل بظهور بعض النجوم مثل النجم سوتيس (الشعرى اليمانية) وهو نجم يظهر بعد مرور 365 يوماً، ولذلك كانت السنة عندهم تبدأ مع ظهور هذا النجم[2]. وعلى هذا الأساس يعتبر المصريون أول من توصل إلى التقويم والذي يعود تاريخه إلى 4236ق.م[3]. أما الأرض فتبدو فكرتهم عنها بسيطة ولا ترقى إلى مستوى العلم الذي وصلوا إليه، إذ اعتقدوا بأنها عبارة عن مستطيل يمتد في اتجاه شمالي جنوبي، وأن نهر النيل يجري في وسط هذا المستطيل. أما فيما يتعلق بمعارفهم الجغرافية عن العالم المحيط بهم فيبدو من المعطيات التاريخية أنه كانت لهم صلات بجيرانهم في الشرق والغرب والشمال والجنوب. ورغم معرفتهم بتلك الأقاليم والبلدان إلا أنه لم يعثر على ما يثبت تقدمهم في صناعة الخرائط إذ كل ما وجد لديهم خريطة توضح موقع أحد مناجم الذهب عندهم. وهو ما يعني اهتمامهم بهذه الناحية.

حضارة أرض الرافدين (العراق):

تعتبر هذه الحضارة من الحضارات القديمة التي واكبت عصر الحضارة

---

(2) شاكر خصباك، تطور الفكر الجغرافي، الكويت، مكتبة الفلاح، 1986، ص13.

(3) جيمس هنري بريستد، تطور الحضارة، ترجمة أحمد فخري، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1962، ص74. في خاصباك المرجع السابق، ص13.

المصرية القديمة، حيث عاش البابليون على أرض سهلية منبسطة ما بين نهري دجلة والفرات. و[4]قد أثر فيهم انبساط هذه المنطقة وإحاطتها بمياه النهرين إلى الدرجة التي اعتقدوا فيها بأن الأرض على هيئة قرص مستدير تحيط به المياه من جميع الاتجاهات، أطلقوا على هذه المياه اسم البحر المحيط أو المياه المرة. وكان مركز الكون حسب اعتقادهم يقع عند منابع نهر الفرات الذي ينبع من الشمال عند جبال طوروس ويشق منتصف الدائرة من الشمال إلى الجنوب. ويخرج من محيط هذا القرص سبع مثلثات وهي جزر تعتبر معبراً للمحيط السماوي حيث يوجد كبار الآلهة. وقد أشاروا إلى الجهات الأصلية الأربع بواسطة رؤوس تخرج من هذا المحيط، وتعتبر محاولتهم هذه لتحديد الاتجاهات الأربع من أقدم المحاولات التي عرفها التاريخ[5]، وأن السماء تحيط بالأرض مرتكزة على أعمدة وراء البحر.

وقد تقدم البابليون في مجال الفلك تقدماً فاق غيرهم من الحضارات المعاصرة لهم، رغم بساطة الأدوات التي استعملوها، فقاموا برصد بعض الكواكب مثل الزهرة والمشتري وزحل وعطارد والمريخ. ومنذ عهد نبوخذ نصر استمرت التسجيلاتُ الفلكية لمدة طويلة (360 سنة تقريباً)[6]. ومن هذه التسجيلات والملاحظات الفلكية استطاع أحد علمائهم (نيبور يمانو 500ق.م) أن يحدد تحركات الشمس والقمر، مع حساب الوقت الذي يستغرقه كل منهما في دورانه اليومي والشهري والسنوي. ووقت كسوف الشمس وخسوف القمر. إضافة إلى تحديد السنة بثلاثمائة وستين يوماً وست ساعات وخمسين دقيقة وواحد وأربعين ثانية[7]. وقد بنيت حسابات السنة على أساس الحركة القمرية،

---

(4) أخذ هذا التقليد ينتقل إلى غيرهم من الأمم: فجعل المصريون، طيبة مركزاً للعالم، واليونانيون مدينة أولمبيا، والرومان مدينة روما، والعرب مكة المكرمة... وهكذا.

(5) عادل صباح الدين راضي، المدخل لدراسة الجغرافية العملية، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، ص25.

(6) شاكر خاصباك مرجع سابق، ص17 ـ 18.

(7) جيمس هنري بريستيد، مرجع سابق، ص235.

وبذلك أصبح لديهم أول تقويم سنوي قمري وجعلوا طول السنة 12 شهراً، البعض منها طوله 29 يوماً والبعض الآخر 30 يوماً. وعلى أساس الفرق ما بين السنة الشمسية والسنة القمرية فقد أضافوا شهراً كاملاً للسنة القمرية. كما كان لهم الفضل أيضاً في اختراع أيام الأسبوع الذي قسموه على أساس عدد آلهتهم (فيوم الأحد مثلاً هو يوم الشمس، والاثنين يوم القمر... وهكذا[8]. وقد اشتهر من بينهم فلكي آخر هو (كيدينو) الذي بلغ من دقة تقديراته لدورة الشمس والقمر السنوية أنه لم يخطئ في حساباته هذه سوى بثانية واحدة في كل سنة. كما كانت حساباته لدورة الأجرام السماوية أدق وأصدق من الأرقام التي يستعملها الفلكيون المحدثون حتى فترة قريبة[9].

ويبدو أن العراقيين القدماء كانوا الرواد في صنع الخرائط، ليس ذلك وحسب وإنما في وضع الأسس العلمية لرسمها مثل مقياس الرسم، والاتجاهات، وتحديد المعالم الطبوغرافية. ولعل أقدم خرائطهم ما يعود تاريخه إلى العام 2300ق.م، وهي الخارطة التي تصور العالم على شكل دائرة. ولهم خرائط أخرى تصور المدن وتخطيطها، كتلك التي توضح القسم الشرقي من مدينة نفر موقع عليها المعابد والمباني والأنهار. وغير ذلك من الخرائط العقارية والمساحية. وعلى هذا الأساس فيمكن اعتبار حضارة أرض الرافدين الرائدةَ في مجال العلوم الجغرافية، وصناعة الخرائط والعلوم الفلكية. وأن العالم مدين لهم فيما توصل إليه فيما بعد من معلومات جغرافية أو فلكية أو رياضية.

الفينيقيون:

عاش الفينيقيون على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وكانوا من البحارة والتجار الذين جابوا البحر المتوسط من شرقه إلى غربه والسواحل الغربية لأوروبا، فأنشأوا العديد من المراكز التجارية على سواحل البحر المتوسط لعل

---

(8) نفس المرجع، ص234.

(9) عادل صباح الدين راضي، علي أبو زيد، جغرافية الخرائط، الطبعة الثانية 1991، طرابلس، مطابع الثورة العربية، ص18 ـ 19.

من أهمها مدينة قرطاجة في تونس على السواحل الشمالية لقارة أفريقيا، وسيطروا على تجارة القصدير من غرب أوروبا وعلى الأخص من بريطانيا. وفيما يخص مساهمتهم في تطور الفكر الجغرافي، فقد ساعدتهم أنشطتهم البحرية على القيام برحلات استكشافية عديدة، من أهمها محاولة الطواف حول أفريقيا ابتداء من البحر الأحمر بأمر من فرعون مصر «نيخاو الثاني». بالإضافة إلى رحلات بحرية أخرى إلى شرق أفريقيا حتى زنجبار، والسواحل الغربية لنفس القارة، ومن أهم تلك الرحلات، رحلة حنون التي وصل فيها إلى جزيرة «فرناندبو»[10]. وإن كان الفينيقيون لم يتركوا آثاراً ذات أهمية في مجال الجغرافيا، إلا أن ذلك لا يحول دون معرفتهم الوثيقة بالعديد من البلدان والشعوب التي تعاملوا معها تجارياً كأواسط أفريقيا وسواحلها الغربية والشرقية والسواحل الغربية لأوروبا، إضافة إلى معرفتهم بأسرار البحار والمحيطات التي كانت سفنهم تجوبها، ومن المحتمل أنهم كانوا يمتلكون خرائط تفصيلية عنها.

الحضارة اليونانية:

استفادت بلاد اليونان من موقعها الجغرافي على الساحل الشمالي الشرقي للبحر المتوسط، الذي كان يشكل ملتقى طرق التجارة القديمة بين أوروبا وبقية العالم المعروف آنذاك، حيث انتقلت إليها معارف وعلوم الحضارات الشرقية من الفرس وأرض الرافدين والحضارة الفرعونية، سواء عن طريق التجار أو العلماء أو الرحلات التي قام بها بعضهم إلى مختلف الأراضي المجاورة، لذلك نشأت بها حضارة عريقة ساهم علماؤها وفلاسفتها في نهضتها. انطلقت هذه الحضارة منذ القرن السادس قبل الميلاد، وقد ساهمت في تطور المعرفة الجغرافية، على يد العديد من أدبائها وفلاسفتها، وظهرت بعض المعارف الجغرافية في القصائد والأشعار، مثل الأوديسا والألياذة لهوميروس، والتي تدل على معرفة الإغريق لكثير من المناطق المعمورة والجبال والأنهار وأنواع الرياح. وإن كانت هذه المعلومات تسودها بعض الخرافات والأساطير. كما انطلق علمائهم منذ البداية

(10) نفس المرجع، ص21.

في تفسير الكون ومن ضمنه الأرض، متبعين في ذلك بعض آراء المصريين القدماء، وحضارة العراق القديمة، قائلين بأن الكون خلق من الماء، وأن الأرض عبارة عن قرص مستدير، أو جسم أسطواني كما اعتقده أحد علماء الإغريق وهو (أناكزيمندر) وأن الأرض معلقة في السماء ثابتة لا تتحرك، وقد مثل أناكزيمندر الأرض على مخطط، أي أنه وضع أول خارطة للعالم بعد خريطة العراقيين القدماء المعروفة باسم جاسور بنحو ألفي سنة، وذلك برسم مستطيل واضعاً بداخله البلاد حسب معرفته بها وفق الاتجاه والمساحات[11].

إلا أن أهم نظرية حول الأرض وحركتها وفلكها تلك التي جاء بها فيثاغورس، والقائلة بكروية الأرض، وأن الأرض ليست هي مركز الكون كما كان الحال سائداً من قبل عند الحضارات السابقة، واعتقد الفيثاغوريون أن الأرض والأجرام السماوية تدور حول نار مركزية واقعة في وسط الكون وتمد الشمس بضوئها إلا أنها غير منظورة، غير أنهم ما لبثوا أن قالوا بأن هذه النار ما هي إلا الشمس بعينها، وأن جميع الأجرام السماوية ومن بينها الأرض تدور حول الشمس. وأيد علماء الإغريق هذه النظرية بما فيهم اقليدس، الذي قال بأن الأرض تدور حول محورها يومياً[12]. كما أورد الفيلسوف أرسطو الكثير من الأدلة على كروية الأرض. وعلى أساس اعتقادهم بكروية الأرض فقد حاولوا قياس محيطها. وجرت محاولات عديدة في هذا الشأن من قبل يودوكسوس، وأرسطو، وأرشميدس. ولعل أهم محاولة تمت على يد ايراتوستين البرقاوي (من مواليد برقة في ليبيا)، الذي حاول قياس الفرق في سقوط وميل أشعة الشمس بين مدينتي سيين (أسوان) والإسكندرية، حيث وجد أن الشمس تسقط عمودية على بئر في أسوان في يوم 21 يونيو (الصيف) بينما تميل الشمس عن ذلك الوضع بزاوية مقدارها (1 ـ 7)، معتبراً أن المدينتين تقعان على خط طول واحد، وأنهما تختلفان في درجة العرض. ومن ذلك توصل إلى أن محيط

---

(11) نفس المرجع، ص51.

(12) شريف محمد شريف، تطور الفكر الجغرافي، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1969، ص203.

الأرض يساوي حوالي 252 ألف ستاديون (الستاديون يساوي 157,5 متر)، وعلى ذلك فإن محيط الأرض يساوي 39690 كم، وهو يقارب الرقم الحقيقي الذي يصل إلى 40120 كم[13]. أما هيبارخوس، فقد قسم الدائرة إلى 360 درجة. وحاول تحديد طول الفصول الأربعة بناء على ملاحظة حركة الشمس الظاهرية.

وإذا كان للحضارة اليونانية هذا الباع الطويل في علوم الفلك والطبيعيات، فإنهم مع ذلك لم ينسوا جانب الكشوف الجغرافية والذي تبين من خلال وصفهم لكثير من المناطق التي اكتشفوها، وبخاصة المناطق المحيطة بالبحر المتوسط وبعض أجزاء أوروبا ومناطق من آسيا وليبيا (أفريقيا)، فهذا هيكاتيوس، والذي يعتبره اليونانيون ابا الجغرافيا، ألف موسوعة بعنوان «رحلة حول العالم»، وهي موسوعة تضم أسماء البلدان والشعوب والمواقع المعروفة لديه، فقد وصف البلاد المحيطة بالبحر المتوسط وبلاد فارس واعتبر أن آسيا وليبيا قارة واحدة وأن مساحتهما تساويان مساحة أوروبا[14]. رغم أن معلوماتهم عن أوروبا كانت محصورة بالأجزاء المطلة على البحر المتوسط، فيما لم يعرفوا إلا القليل عن بقية أجزائها إلى أن قام الرحالة بنياس بالطواف حول السواحل الفرنسية ثم وصل إلى الجزيرةِ البريطانية واصفاً عمليات استخراج القصدير الذي كان يستورد منها. . أما معلوماتهم عن بعض أجزاء آسيا وأفريقيا فيعود الفضل فيها إلى هيريدوث الرحالة والمؤرخ الإغريقي الذي زار كثيراً من المناطق الساحلية لهاتين القارتين.

أما فيما يخص صناعة الخرائط، فإن أقدم الخرائط اليونانية تلك التي تعود إلى العالم أناكزيمندر، المعروفة بالخريطة الأيونية. وهي عبارة عن قرص مستدير يطوقه المحيط، وتحتل بلاد اليونان قلب تلك الخريطة. ولعل هيكاتيوس أول من جعل الخارطة جزءاً من النص الجغرافي. وانتقلت الخرائط بعد ذلك إلى مرحلة جديدة، من حيث رسم بعض الأحداثيات التي سهلت معرفة المواقع والمسافات بين بعض المدن أو البلدان. إلا أن هيبارخوس حاول

---

(13) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، الطبعة الرابعة، القاهرة 1958، ص105، في شاكر خاصباك، مرجع سابق ص36.

(14) عادل راضي، جغرافية الخرائط، مرجع سابق، ص29.

وضع شبكة من خطوط الطول والعرض، وهو بذلك يعتبر أول من حدد خطوط العرض على أساس فلكي[15].

أما بطليموس المولود بالإسكندرية والذي عاش في القرن الثاني الميلادي، وكان من أعظم الجغرافيين في العصر الروماني، فيعتبر حلقة الوصل بين الجغرافيا القديمة والجغرافيا الحديثة، وله مصنفان عظيمان في الجغرافيا والفلك. أولهما يعرف «بالمجسطي» أو الكتاب الكبير، وهو كتاب فلكي احتوى على نظرياته وآرائه الفلكية، ومن بينها كروية الأرض وأنها ثابتة وأن الأجرام السماوية هي التي تدور حولها. أما كتابه الثاني المعروف بالجغرافيا أو الدليل الجغرافي فيعتبر في حد ذاته دليلاً لرسم الخرائط الإقليمية للقارات المعروفة والتي بلغ عددها 26 خريطة منها: عشر خرائط لأوروبا، أربع لأفريقيا، والبقية لقارة آسيا. بالإضافة إلى 67 خريطة تفصيلية لمناطق صغيرة من العالم، الذي قسمه إلى سبعة أقاليم عامة، وقسم كل إقليم إلى عشرة أقاليم ثانوية[16]. وتعتبر هذه المرحلة ختام القصة بالنسبة للخرائط الجغرافية في الحضارات القديمة، وبعدها لم تحو الكتب الإغريقية واللاتينية أية معلومات جديدة[17].

وبعد هذه الرحلة القصيرة حول تطور الفكر الجغرافي على يد العديد من علماء الحضارات القديمة، يأتي دور المسلمين، الذي وقع على كاهلهم الارتقاء بهذا العلم والسمو به، وعلى ذلك يمكن اعتبار المرحلة الإسلامية مرحلة فاصلة فيما يخص الفكر الجغرافي القديم، وما شهده من تطور في العصور اللاحقة.

تطور الفكر الجغرافي في العصر الإسلامي:

إذا كان لنا أن نفترض أن انتشار الإسلام في أصقاع بعيدة عن مكان ظهوره قد جعل كل الأقطار تنضوى تحت لواء الإسلام وتقع ضمن ما يعرف بالعالم الإسلامي، فإن هذا العالم إذن قد ضم أراضي سادت فيها حضارات قديمة جداً

(15) شاكر خاصباك نفس المرجع، ص65.

(16) نفس المرجع، ص67.

(17) عادل راضي، المرجع السابق ص42.

كان وما زال لها الأثر الفعال في الحضارات التالية لها مثلما هو الحال في الحضارة المصرية القديمة وحضارة أرض الرافدين، والحضارة الفينيقية، وحضارة فارس وغيرها من الحضارات المنتشرة هنا وهناك، لجاز لنا القول بأن الحضارة الإسلامية تمتد إلى عصور بعيدة موغلة في القدم، بل كان لها منبع من أهم المنابع العلمية. يضاف إلى ذلك أن الحضارة الإسلامية قد استقت أيضاً من الحضارات الأخرى مثل الإغريقية، والهندية والصينية. فكل هذه الحضارات مدت المسلمين سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة بالعديد من العلوم، على أساس أن الحضارة تنتقل من جيل إلى جيل ومن شعب إلى آخر عبر العصور، كما أن الدين الإسلامي وما تفرد به من حث على التعلم وسبر أغوار هذا الكون وتتبع آيات الله في خلقه، كانت الدافع الرئيسي لهؤلاء العلماء لتكملة المشوار الذي بدأه غيرهم، وهو ما حدث مع الحضارة الإسلامية منذ بزوغ فجر الإسلام وإلى وقتنا الحاضر، فمنذ نهاية الفترة البطليموسية في أواخر عهد الحضارة الإغريقية، بدأ الجغرافيون الكبار في الاختفاء ومعهم بدأ الفكر الجغرافي في التقهقر، خاصة بعد تحول الامبراطورية الرومانية إلى الديانة المسيحية، وبداية سيطرة رجال الدين المسيحيين على الفكر والثقافة، وظهور مدرسة فكرية جديدة عرفت باسم مدرسة الإنكار التي أخذت على عاتقها مسخ جميع الأفكار القديمة، خاصة ما جاء عن الأرض والكون والبشر واعتبارها تتناقض ومفاهيم الدين المسيحي وتعاليم الكتاب المقدس، وسادت بدلاً منها أفكار تنكر كروية الأرض، بل اعتبرتها جسماً مسطحاً طافياً على سطح الماء وفي ظل هذه الأحداث كان لا بد للفكر الجغرافي من أن يتدهور، فيختفي الباحثون فيه خوفاً على أنفسهم. غير أنه في الجانب الآخر وبعد مضي عدة قرون على ظهور الإسلام كانت هناك نهضة علمية ناشئة أخذت على نفسها حمل مشعل الحضارة والتقدم والظهور على خارطة تقدم المعارف العلمية في شتى فروعها في تلك الفترة المظلمة التي سادت في أوروبا. وعلى ضو ذلك يحق لنا التساؤل عن موقف العرب من الفكر الجغرافي على وجه الخصوص فيما قبل الإسلام؟

لا شك أن معارف العرب في شبه الجزيرة العربية كانت تخص حياتهم

اليومية وبناءهم الاجتماعي المبني على الولاء للقبيلة والحمية العربية، وهي حياة كانت تسودها أنشطة اقتصادية مبنية على الرعي والترحال والتنقل من مكان إلى آخر سعياً وراء الماء والكلأ، أو الاشتغال بالتجارة بين مكة والشام أو بينها وبين اليمن «رحلة الشتاء والصيف» ولعل كل ذلك أفادهم كثيراً في التزود ببعض المعارف الجغرافية البسيطة المنبثقة من وسطهم الطبيعي والتي ظهرت في أشعارهم وآدابهم. كما أن العرب كانت لهم صلات تجارية مع بعض الشعوب المجاورة لهم في آسيا أو في أفريقيا. ونتج عن ذلك اكتساب بعض المعارف عن المظاهر الطبيعية المتصلة بحياتهم، كالتضاريس ومنابع المياه والأودية والأنهار، وحركة النجوم والكواكب في السماء وأثرها في تعاقب الفصول وما يحمله كل منها من معانٍ حياتية، ومن هنا اكتسبوا مهارة في التعرف على النجوم والكواكب ومنازلها، والاستفادة منها أثناء تنقلاتهم الليلية أو النهارية لمعرفة اتجاهاتهم، ومعرفة الأوقات والأشهر، ومعرفة مواعيد سقوط المطر ووجود بعض الظواهر المناخية الأخرى المرتبطة بظهور بعض النجوم والكواكب إلى الدرجة التي جعلتهم يتخذون من بعض النجوم والكواكب رمزاً لعبادتهم مثل الشعرى والثريا. كما أن امتهان بعض قبائلهم للغزو والترحل زاد من معرفتهم للمسالك والدروب والمظاهر الطبيعية التي استفادوا منها أثناء غزوهم أو ترحالهم. أدت هذه العوامل إلى احتكاك العرب مع جيرانهم في قارة آسيا خاصة مع الهند وفارس أو مع الشام وأرض الرافدين ومع شرق أفريقيا وشمالها.

ولعل حال المعرفة الجغرافية ذاك قد استمر بعد ظهور الإسلام لمدة قصيرة، وذلك لانشغال المسلمين بالفتح ونشر الإسلام في شتى أصقاع الأرض، وتتبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة. إلا أن هذا الانتشار الواسع في أرجاء المعمورة قد أدى ولا شك إلى اكتساب خبرات ومعلومات كثيرة عن البلدان والشعوب الأخرى التي دخلت إلى الإسلام. فالخراج والجزية التي تقدم لمركز الدولة الإسلامية لا تأتي من فراغ إذ لا بد من معرفة الشيء الكثير عن أحوال تلك البلدان وما فيها من سكان وخيرات يجب أن يعطى عنها الخراج. أضف إلى ذلك أن تلك الحروب المتواصلة تمت عن معرفة وثيقة بالدروب

والمسالك والمظاهر الجغرافية التي يجب على قادة الجيوش العربية معرفتها والإلمام بخباياها وأسرار الشعوب الأخرى مما حتم وجود رجال ذوي خبرة ومعرفة بالملاحظة والاستدلال لتدوين ما يشاهدونه أو ما يتعرفون عليه من خلال لقاءاتهم بالتجار أو غيرهم ليقدموه مادةً يعتد بها في سير الفتوحات والحروب خاصة وأن الجيوش الإسلامية بدأت تبتعد كثيراً عن مراكز القرار الرئيسية في الدولة الإسلامية ولذلك بدأ في الظهور ما يعرف بالجغرافية الوصفية.

وبعد استقرار الأحوال السياسية وتثبيت أركان الدولة وبداية الخلافة الأموية، بدأ الاهتمام بفكر الآخرين والاستفادة منه، فبدأ المسلمون في ترجمة العديد من أمهات الكتب، فهذا ابن المقفع يترجم كتاب «تحليل القياس» لأرسطو، والحجاج بن يوسف بن مطر يترجم كتاب المجسطي. كما قاموا بترجمة العديد من الكتب الأخرى للعلماء الذين سبقوهم من الحضارات الإغريقية والهندية والفارسية. فاستفادوا من ترجمة كتب أرسطو في معرفة الكثير من آراء اليونان الجغرافية. وإذا كان العرب يقومون بتلك الترجمة، فليس ذلك من أجل الاطلاع والمعرفة والنقل فقط، بل إنهم وبفضل إلمامهم ببعض المعارف والخبرات عن طريق الممارسة والملاحظة المباشرة نجدهم يمحصون في آراء غيرهم منتقدين لها مثل البتاني والمسعودي اللذيْنِ فندا آراء بطليموس. هذا النقد إنما كان يتم بالبراهين والملاحظات الميدانية، واضعين بذلك أسساً جديدة لعلم الجغرافيا الذي بدأ يأخذ استقلاليته عن بقية العلوم الأخرى وفق مناهج جديدة.

وما إن جاء عهد الخلافة العباسية حتى كان للدولة الإسلامية علماؤها المتخصصون في شتى العلوم ومن بينها الجغرافيا. بسبب تشجيع الخلفاء والحكام للعلماء والباحثين، وعلى ذلك يمكن القول إنَّ عهد المأمون كان عصر أول مدرسة جغرافية عربية لها طابعها الخاص[18]. فمن هذه المدرسة خرج

(18) عبد العليم عبد الرحمن خضر، المسلمون وعلم الجغرافيا، السعودية، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، 1407، المكتبة العربية السعودية ص123.

الفكر الجغرافي من نطاق المعلومات المتناثرة إلى الكيان المستقل الذي يدرس مواضيع تتسم بالخصوصية بعيداً عن الشمولية الكلية. بل إن المنهج الجغرافي نفسه قد تغير أيضاً. ففيما كانت الجغرافيا من قبل تنهج نهج الوصف، نجدها تنحو نحو المنهج التحليلي المعتمد على التفسير والتعليل والربط بين الإنسان والمظاهر البيئية المختلفة. وفي ضوء ذلك ظهر الكثير من علماء الجغرافيا المسلمين كجغرافيين حثميين[19]، يؤمنون بسيطرة الطبيعة على حياة الإنسان وبالتالي اختلاف حياة الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم بل وأشكالهم وألوانهم وسلوكياتهم، وقد سبقوا الجغرافيين والمفكرين الأوروبيين الذين ظهروا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في ذلك. فهذا ابن حوقل يربط بين نشاط الإنسان والمناخ، ويضع تفسيراً لتدرج السلالات البشرية في الأقاليم السبعة المعروفة آنذاك حسب نمط المناخ السائد بكل منها، حيث يصف سكان الأقاليم الجنوبية بالسمرة والتي تشتد كلما اتجهنا جنوباً، وتخف هذه السمرة كلما اتجهنا شمالاً إلى أن نصل إلى البشرة البيضاء بسبب البرودة[20]. ويعني ذلك أن العلماء الجغرافيين المسلمين إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما كانوا يبحثون في علاقة الإنسان بالبيئة وأحوال البشر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية شجعهم على ذلك ما شاهدوه من اختلافات بين الشعوب أثناء تجوالهم وترحالهم في شتى أقطار العالم المعمور والمعروف في ذلك الوقت بل إن دراستهم للمناخ وملاءمته لبعض المحاصيل بالإضافة إلى المعرفة الوافية بأشكال السطح ونوعيات التربة، جعلتهم ينقلون محاصيل زراعية معينة لم تكن معروفة في الأندلس مثل قصب السكر والموز والقطن إلى تلك البلاد محولين أراضي كانت جرداء إلى أراضٍ خضراء، كما أن الجغرافيين المسلمين كانوا على دراية تامة بأنواع التربات وملاءمتها للزراعة،

---

(19) الجغرافيا الحثمية تؤمن بسيطرة الطبيعة على الإنسان، إذ ليس له خيار فيما يفعله سوى ما تجود به البيئة الطبيعية، وبالتالي يعتبر عبداً لهذه البيئة.

(20) يسري الجوهري، الكشوف الجغرافية، القاهرة، منشأة المعارف بالإسكندرية 1969، ص13.

فهذا البغدادي يتكلم عن مدى صلاحية بعض الأراضي للزراعة دون سواها، حيث يقول إن الأرض الرملية لا تصلح للزراعة بسبب تعرضها بسرعة للعطش، إذ يغيض فيها الماء فلا ينتفع به نبات، ولكنها كلما زادت نسبة الصلصال بها زادت صلاحيتها للزراعة. ضارباً على ذلك مثلاً بأرض مصر ذاكراً بأن أرض مصر في الأصل رملية لا تصلح للزراعة لكنها يأتيها طين أسود فيه دسومة كبيرة يسمى (الابليز)، وذكر أن هذا (الغرين) يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينصب الماء فيحرث ويزرع[21]. وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على التحول بهذا العلم من مجرد الوصف إلى تحليل الظواهر وربط الأسباب بالنتائج. ومما يدل على سعة اطلاعهم وكثرة أبحاثهم أنهم لم يتركوا شاردة أو واردة في الجغرافيا إلا وكتبوا عنها سواء بصفتها ومفهومها أو في طيات غيرها من المواضيع، فتنوعت مؤلفاتهم في هذا الخصوص وظهرت مصنفات جغرافية معتمدة على الملاحظة والمشاهدة الميدانية أو نقل المعلومات من الكتب المترجمة أو من التجار أو السكان، ويبدو ذلك واضحاً في كتب أطلقوا عليها تسميات مختلفة مثل «المسالك والممالك» أو «البلدان» أو «أخبار البلدان والأقاليم». وهي كتب تبحث في شتى فروع المعرفة الجغرافية، من سكان وأديان وعادات وتقاليد ومحاصيل زراعية وطرق ومدن. . . . . الخ.

وإلى جانب نظرتهم إلى هذه العلاقات المتشابكة بين البشر ومختلف البيئات، نجدهم يمدون أبصارهم إلى الكون وشكل الأرض ومركزها من هذا الكون الفسيح، يحدوهم في ذلك معرفتهم بالنجوم والكواكب وتحركاتها ومواقعها، متبعين في ذلك آراء مختلف الفرق في ذلك الخصوص فالبعض منهم أخذ بالفكرة القائلة بأن الأرض مسطحة، أو أنها على هيئة قرص مستدير وأنها ثابتة لا تتحرك، فيما نجد البعض الآخر قد ألم إلماماً واسعاً بفكرة كروية الأرض إلى الدرجة التي يصف فيها خط الاستواء بأنه أكبر خط في نصف الكرة، وبحساباته توصل إلى ما يقارب الحقيقة من محيط الأرض. ويبدو أن العلماء

(21) عبد العليم عبد الرحمن، مرجع سابق، ص145.

المسلمين قد تقدموا بخطى كبيرة في مجال الفلك وعلومه المختلفة، شجعهم على ذلك اهتمام الخلفاء، بل واشتراك بعضهم في هذا العلم، مثل المأمون الذي ازدهرت العلوم المختلفة أثناء خلافته، وعجت عاصمة الخلافة العباسية بمختلف العلماء. ولشغفه واهتمامه بعلم الفلك أقام مرصداً لذلك في الشماسية ببغداد، لرصد النجوم والكواكب. وتوقيع خطوط طول وعرض بعض الأماكن والمواقع. وعرض بعض الأماكن والمدن بدرجة تقارب الحقيقة. فهذا الزرقالي الفلكي الأندلسي الذي قام بقياس طول البحر المتوسط من غربه إلى شرقه والذي وجده يساوي 42 درجة و30 دقيقة، بزيادة 52 دقيقة عن طوله الحقيقي في حين بلغت الزيادة عند بطليموس 19 درجة، ويتضح من ذلك أن العرب عرفوا قطر البحر المتوسط قبل أن يعرفه الإفرنج بخمسمائة سنة[22].

وإن كان العرب والمسلمون قد اشتغلوا في شتى فروع الجغرافيا، فإنهم لم ينسوا مع ذلك توقيع معلوماتهم ومعارفهم على الخرائط لزيادة الشرح والتوضيح، خاصة وأن الجغرافية عندهم لا تخص أحداً بعينه بل يجب أن يستفيد منها كل إنسان. لذلك فقد برعوا في رسم الخرائط وتلوينها وتصحيح خرائط من سبقهم في ذلك وإفراد كل منطقة بخريطة مخصصة لها، بل إنهم ضيقوا من نطاق رسم الخرائط الإقليمية ليشمل رسم ظاهرة جغرافية بعينها، فالخوارزمي يرسم خريطة تمثل نهر النيل من منبعه إلى مصبه، مما يعني أن نهر النيل كان معروفاً قبل أن يدعي الغرب اكتشافه وأن مجاهل أفريقيا لم تكتشف حديثاً، كما أن هذا العالم كان أسبق من غيره في وضع الشمال في أعلى الخريطة بدلاً مما هو سائد بوضعه في أسفلها. إضافة إلى ذلك قاموا بتصحيح خرائط بطليموس، حيث قام البتاني بتصحيحها، فاعتبر أن المحيط الهندي بحرٌ مفتوحٌ (جعله بطليموس بحراً مغلقاً)، وجعل قارة أفريقيا محاطة بالبحر من جميع جهاتها، وقد برع الكثير من العلماء في رسم الخرائط، حتى أن كونوراد ميللر أحصى حوالي 275 خارطة للعالم الإسلامي أسماها أطلس الإسلام، وذلك

(22) عادل راضي، جغرافية الخرائط، مرجع سابق، ص54.

باستثناء خرائط الإدريسي التي تمثل مدرسة جغرافية بحد ذاتها أطلق عليها «ميللر» اسم المدرسة العربية النورماندية[23]. وقد تميز من بين هؤلاء العلماء الذين زينوا مصنفاتهم بالخرائط: ابن حوقل، البلخي، الاصطخري، المقدسي، الإدريسي. فالعلماء المسلمون إذن قد جابوا هذا العلم طولاً وعرضاً، متقدمين على من أتى بعدهم وادعى وصوله إلى حقائق جغرافية معينة، كان المسلمون قد توصلوا إليها من قبل بمئات السنين.

فإذا كانت كتب الجغرافيا الحديثة تخبرنا أن جان براين الجغرافي الفرنسي الذي قام بالتدريس في باريس سنة 1901 قد اهتم بدراسة مراكز العمران وأشكال المنازل الريفية، ودراسة القرى والمدن والموضوعات المتصلة بها[24]، فإننا نجد من العلماء المسلمين من سبقه إلى ذلك بعدة قرون مثل اليعقوبي وابن رسته والمقدسي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي. الذين ذكروا أن السكان يختارون الأرض المناسبة لإقامة المدن حسب موقعها الاستراتيجي أو وظيفتها وأهميتها. فالمدن عند المسلمين قد يرجع تشييدها للتأثير الديني (مدن دينية) مثل مكة والمدينة المنورة وبيت المقدس. أو لتأثيرها التجاري مثل بغداد والموصل، والتي اتخذت أهميتها من نشاط الإنسان التجاري الذي كان له الأثر الكبير في تشييد هذه المدن. كما أن المسعودي قدم دراسات حول العوامل الجغرافية وأثرها في قيام المدن[25] وقد سبق ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي جان براين في القرن العشرين في كتاباته البشرية عن العالم الإسلامي وهي دراسة مشتملة على أهم المدن والقرى التي زارها وعن العادات والتقاليد والنواحي الاقتصادية المختلفة التي شهدتها هذه المدن والقرى كمناطق للاستيطان البشري[26]. ومن جهة أخرى نجد ابن خلدون في القرن الرابع عشر

---

(23) نفس المرجع، ص58.

(24) فؤاد محمد الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، الطبعة الثانية، الكويت، وكالة المطبوعات 1974، ص133.

(25) عبد العليم عبد الرحمن خضر، مرجع سابق، ص114 ـ 115.

(26) نفس المرجع، ص116.

الميلادي يدرس العمران والاستيطان الريفي والحضري وعوامل التجمع وقيام المدن والقرى واختلافها رابطاً ذلك بالبيئات الجغرافية.

ويبدو أن فضل العلماء المسلمين في علم الجغرافيا كان كبيراً على من أتى بعدهم، حيث تركوا آثاراً جليلة اقتدى بها وأخذ عنها علماء أوروبا بعد أن ترجمت إلى لغاتهم. فقد قام المستشرق باربييه دومنيار بترجمة كتاب المسعودي «مروج المذهب» إلى الفرنسية، وطبع في باريس بين سنتي 1861 ـ 1877 في تسعة مجلدات كما نقله إلى الإنجليزية سبرنجر[27]. ولا شك أن ذلك يدل على المساهمة الفعالة من قبل العلماء والباحثين العرب والمسلمين على حد سواء، واكتسابهم قصب السبق على غيرهم في بعض فروع علم الجغرافيا، وهي إسهامات ما زال أثرها باقياً في أذهان الكثير من علماء الجغرافيا المحدثين.

(27) نفس المرجع، ص134.